

## ابن الخطيب

سياسى وشاعر وفيلسوف

كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) ، وكان عبقرية متعددة النواحي ؛ فهو طبيب وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى رجب سنة ٧١٣ هـ ( ١٣١٣ م ) ، ثم انتقل بيتهم إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله فى القصر والخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والفقه والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته . ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ حل مكانه فى خدمة القصر وهو قفى فى عفوانه . وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الحبيب وزير السلطان يوسف ، وكان من أعظم الكتاب والشعراء فى عصره . ولما توفى ابن الحبيب فى الوفاء الكبير سنة ٧٤٩ هـ خلفه ابن الخطيب فى الوزارة والكتابة إلى جانب كبير الوزراء يوسئد الحاجب أبى النعيم رضوان . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف ( ٧٥٥ هـ ) وخلفه فى الملك ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب معاوناً له ، وندب للوصاية على الأسماء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولاية سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس يستنصره ويستغيث به على مقاومة ملك قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر      علاك ما لاح فى الدجى قمر  
ودافعت عنه كف قدرته      ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته أيما تأثر ، ووعدهم باجابة ملتسمهم بتحقيق مطالبهم .

وفي سنة ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٩ م ) نشبت ثورة في غرناطة قتل فيها الحاجب رضوان وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وتولى مكانه أخوه اسماعيل ففر إلى وادي آش ، واعتقل ابن الخطيب بعد ذلك بقليل . ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه في كتاب « الاحاطة » هذه المراحل الأولى من حياته العامة في قوله : « فقلدني السلطان سره ( يريد أبا الحجاج ) ولما يستكمل الشباب واستعلمني في السفارة إلى الملوك واستنابني بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمنى على صون حضرته وبيت ماله وسجوف حرمة وسعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوق ، وأعلى مجلسي وقصر الشورة على نصحي ، إلى أن كانت الكائنة فاقتدى في أخوه التغلب على الأمر ، فسيجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحنة من أعوان ثورته على القبض عليّ ، فكان ذلك . »

وتدخل السلطان أبو سالم المريني ملك المغرب في شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه معه مودة وصدافة منذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب اجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ؛ وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب ( المحرم ٧٦١ هـ ) واستقبلهما السلطان أبو سالم في فاس بترحاب ، واحتفل بقدمهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب في الحفل قصيدته المشهورة التي يدعو فيها لنصرة سلطانه ، وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادي وتم به الزهر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى	باكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربي حناحي وكره	فهانذا سالى جناح ولا وكر

وكان لانشاء ابن الخطيب في السامعين أعظم وقع ، ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ؛ إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى .

وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهاة عدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز في حوادث عصره وفي توجيه شؤونه . وكان ابن خلدون يشغل في دول المغرب نفس المركز الذي يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة التي يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس ؛ وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل القيرة والتنافس حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلاطنتها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويحل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والاحلال . فيقول لنا ابن خلدون مثلا في ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيها ، وملاء الدولة بمدائحها وانتشرت في الآفاق قديما » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية وبراعته في الادارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب خلاله ومواهبه في تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية والامتاع بالفهوم الثقيلة . » ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته في الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويحمل (٢) .

وأنفق ابن الخطيب ومليكه في المنفى زهاء عامين ونصف عام حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المعتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب أن يسترد ملكه ، وذلك في جهادى الآخر سنة ٧٦٣ هـ ( ١٣٦١ م ) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته في الوزارة ، ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافس

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها وراجع كتاب ابن خلدون ص ٣٦ - ٣٩

(٢) راجع فتح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

في السلطنة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى الذى قربه السلطان وأولاه عطفه له قام به من معاونته في استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يمرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم ( رمضان سنة ٧٦٤ هـ ) وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب جهوده وعمله في الوزارة يومئذ في قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدسة والتربة يكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأق بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية والأمن ، وروم الثغور ، وتشمير الحبايه وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، في إثثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنازضانا من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعمامة . . . (١) » غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته : « وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة ، وخطط بنيه بندائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، ففتنوا في السعاية فيه (٢) . »

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى في الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويشير حوله ضراما من البغضاء والحسد ، وكان السلطان بعرض في البداية عن الاصغاء لأعدائه والوشاة به . ولكنه بدأ في النهاية يتأثر بسعائيتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغبر عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها في نفر من خاصته ، ومعه ولده علي ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح حتى عبر البحر إلى سبتة ( ٧٧٣ هـ ) وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز الربنى ملك المغرب ، وكان السلطان

(١) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٤١ . — (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥

يقيم يومئذ في تلمسان فقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى في استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأنى بها معززة مكرمة ، وتبوأ ابن الخطيب في بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيئته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الاسلام والطعن في النبي ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، ونسبوا إليه في ذلك أفوالا ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه في الوزارة أبو عبد الله بن زمرك أكبر سروج لهذه الدعاية . وتولى ضوع الاتهام عدو ابن الخطيب القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي ، ووجه إليه بالمغرب رسالة شديدة ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن في حق النبي ويقول : « فانه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكرة يكبر في النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم . ولولا أنكم سافرتم قبيل تقاص السلطة عنكم لكانت الأئمة المسلمة امتعاضاً لدينها وديناها قد برزت هذه الجهات لطلب الحق منكم . » ثم يعدد مثالبه في الحكم قائلاً : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العيب في الابشار والأسوال ، وهتك الأعراض وإنشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال السكر والحيل ، والغدر في غالب الأحوال للشريف والمشروف والخادم والمخدوم (١) » وسجل القاضي أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضي رسله إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع في الوزير الملحد ، وهو الاعدام . فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس وقال لهم : هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؛ وردهم خائبين ، وزاد في اكرام ابن الخطيب ورعايته (٢) .

ولما توفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ( ٧٧٤ هـ ) وخلفه ولده

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ونفع الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

السعيد طفلاً على العرش غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، ونزل بفاس واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته في الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمحضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت في شمال المغرب على يد بعض الزعماء من بني مرين ، وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازي مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير . وخُلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك في أوائل سنة ٧٧٦ هـ . وكان ابن الخطيب قد لجأ في أثناء ذلك إلى البلد الجديد « ضاحية فاس » وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الانقلاب باجر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذي قطعه لابن الأحمر ، ولم يدحر وزيره سليمان بن داود وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً في تشديد النكير عليه وتدمير مصرعه ، وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق لما نتمى إليه من أنه كان يمرض السلطان عبد العزيز على محاربتة . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله ابن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى واستدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ومواجهته بالتهمة المنسوبة إليه وأخصها تهمة الزندة استناداً على ما ورد في بعض رسائله ، وعزّر وعذب أمام الملاء ، وأفتى بعض الفقهاء السفلة بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً في سجنه ، وأخذت جثته في الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت . وكان ذلك في أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) . وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ثغمية الجهالة والتعصب والاحقاد السياسية الوضيعة . وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون منه أساتاً من الشعر كان يرددتها وهو في سجنه ويرثي بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن

بعدنا وإن جاوتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأفاننا سكنت دفعة	كجهر صلاة تلاه القنوت
وكنا عصما فصرنا عظاما	وكنا نقوت فها نحن قوت

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته وإلى المجاهدة في سبيل الدين والوطن ، وله في ذلك رسائل عديدة ونداءات مؤثرة يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم الذي لا محيص من وقوعه ، وهي رسائل تمتاز بروعة أسلوبها (١) .

وأبلغ من ذلك كله في الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ما وجهه في وصيته إلى أولاده من النصيح بعدم الاسراف في اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم سالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الاقتضاح والانتقار ، فمعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال . وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالأجمل في الطلب أولى (٢) . »

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكري والأدبي في هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب حسبما أسلفنا ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً متنوعاً من مؤلفات عديدة وديوان شعر حافل ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الاحاطة في أخبار غرناطة ، مركز الاحاطة بأدباء غرناطة ، الحلل (بالأسكوريال) .

(١) نقل إلينا المقرئ في نفع الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه المسائل .

(٢) نفع الطيب ج ٤ ص ٤٢٥ .

اللمحة البدوية في تاريخ الدولة النصرية ، رقم الحلل في نظم الدول . الحلل  
الموشية في الأخبار المراكشية ، التاج المحلى في مساجلة القدر المحلى ،  
( وهو أيضاً تاريخ لغرناطة )

منفعة السائل في المرض الهائل . ( وهو يتعلل بالوباء الكبير سنة ٤٩٩ هـ )  
( بالأسكوريال ) .

ريحانة الكتاب ( بالأسكوريال ) الديوان ( بالأسكوريال ) السحر والشعر  
الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة (١)

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر نظمه الموشحة  
الذائعة الصيت التي مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس  
لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى أو خلسة المختلس

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا  
المقرى منها العدد الحجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يكتبه إليه منها (٢) .  
 ويفرد المقرى في كتابه نفع الطيب مجلدين كاملين ( هما الثالث  
والرابع ) لابن الخطيب ، وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد  
نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله فصولاً وشدوراً لا تحصى ، كما نقل  
إلينا وصته لأولاده ، وهي من أبدع ما كتب (٣)

محمد عبد الله عنانه

(١) راجع كتاب المبرج ص ٧٤٢١ — ٤٣٠ .

(٢) راجع كتاب نفع الطيب ج ٤ ص ٣١٩ — ٤٢٦ .

(٣) راجع هذه القصيدة بأكملها في نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .